الفصل الثانى

فى البدء كان القرار

تقول حكمة صينية :

« إن من صفات الزعيم أنه يستطيع أن يدفع الناس إلى وضع ثقتهم فيه ولكن الزعيم العظيم هو ذلك الذى يستطيع أن يعيد للناس ثقتهم بأنفسهم » .

« . . إن أحداً لا يستطيع أن يقدر المعاناة التى يتعرض لها المسئول عن اتخاذ قرار الحرب . ولقد عشت حياتى كضابط يعيش الحرب أو يعد نفسه للحرب ، واتخذت – بعيداً عن الجيش – قرارات لعمليات وطنية تقوم على إطلاق النار . ولكن هذا كله لا يقاس بمسئولية اتخاذ قرار حرب تشمل الأمة كلها والجيش كله . إن كل فرد سأدفعه بيدى إلى خط النار ، وكل فرد قد يصبح شهيداً (كما أصبح أخى عاطف) . . ثم من يضمن نتيجة هذه الحرب . . لا أحد يستطيع أن يضمن نتيجة أى حرب . . إنه الله وحده !

وبرغم هذا فهناك دائماً الدافع الأقوى من كل شىء . . دافع الإحساس بمصر ، وما تريده مصر ، وإثبات وجود مصر .

مصر لا تزال تعيش ، ولا تزال قادرة على الحرب ، ولقد كنت وما أزال أثق ثقة كاملة فى قواتنا المسلحة ، وبعد تحليلى الدقيق لمعركة ١٩٦٧ بكل ما فيها من مرارة ، أصبحت أثق فى أن قواتنا المسلحة كانت ضحية من ضحايا الهزيمة ، وليست أبداً سبباً لها .

وكان هذا الدافع وحده هو ما يؤيد قرار الإعداد للحرب ، وهو الذى دفع رجالنا إلى الحرب ، وكأن كلا منهم قد اتخذ القرار بنفسه . كل منهم يحارب لأنه يريد الحرب (لهذا الهدف) لا لأنه ينفذ قراراً بالحرب .

وكان هذا هو ما حقق معجزة العبور .

« من مذكرات الرئيس محمد أنور السادات »

لم يتصور أحد حجم المعاناة التى كان يمر بها أثناء اتخاذ القرار . بل أنهم أكدوا أنه لن يدخل أية حرب مع إسرائيل

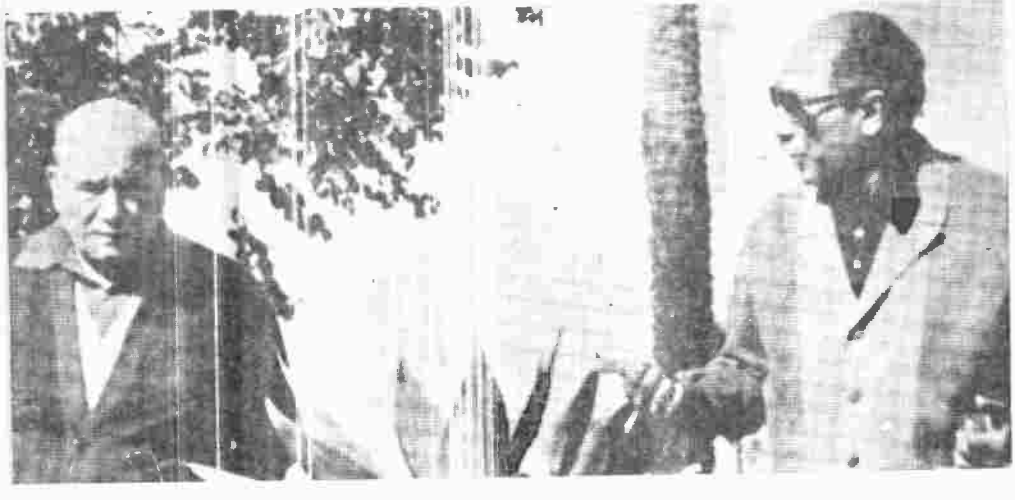

الرئيس السادات – فى حديقة منزله – مع أحمد إسماعيل على .
أثناء تكليفه بمنصب وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة ،
تمهيداً للحرب

رسالة هامة من نيويورك من المستمعة العربية غادة أ . رشيد :

مع اندلاع شرارة الحرب ، وفقنى الله إلى أن أجد لنفسى دوراً (لا أزعم أنه يرقى إلى دور المقاتل الذى اقتحم أعتى المواقع . . وقدم أعظم ألوان التضحية والفداء) . . وقد تحدد دورى هذا بمجرد أن سارعت إلى إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة ، ووضعت نفسى تحت تصرفها كمراسل حربى للإذاعة واستطعت أن أنقل للمستمعين صوراً حية من جبهة القتال من خلال برنامج « يوميات مراسل حربى » ثم أضفت إلى هذا البرنامج بعد فترة قصيرة برنامجى الثانى « صوت المعركة » وكانت وما زالت رسائل المستمعين تصل إلىّ تعليقاً على ما أقدمه فى (صوت المعركة) بالرغم من أن أصحاب هذه الرسائل لا تحركهم الرغبة فى إذاعة أسمائهم أو رسائلهم أو تعليقاتهم لأن طبيعة البرنامج لا تسمح بذلك ، ولعل هذا ما كان يجعل لهذه الرسائل قيمة ووزناً أكبر .

لكننى توقفت أمام رسالة وصلت إلىّ من المستمعة غادة أ . رشيد التى تعيش فى نيويورك . . فقد كان حجم الرسالة غير عادى . . ولحسن الحظ اتضح أن مضمونها أيضاً غير عادى .

لقد قالت السيدة غادة فى رسالتها الهامة : « إنها تعيش فى أمريكا منذ ثمانية أعوام وقد تجرعت مرارة نكسة ٦٧ . . وأحست بالمهانة والذل حتى إنها ظلت شهوراً بعدها لا تجرؤ على الخروج إلى الشارع ، حتى لا تلطم أسماعها تعليقات السخرية والشماتة . . ومع مرور الشهور والسنين سيطر عليها اليأس من أى حل عسكرى يعيد للإنسان العربى كرامته وأرضه فهى كلما قرأت صحيفة أو استمعت إلى إذاعة أو شاهدت تليفزيون لا تجد إلا ما يكرس هذا الإحساس اليائس بداخلها .

ظل هذا حالها (وحال العرب الذين يعيشون فى الخارج) ، إلى أن بدأت حرب أكتوبر . . وتوالت أخبارها بما تحمله من انتصارات للقوات العربية . . ومن خلال متابعة السيدة المستمعة لبرنامج « صوت المعركة » ، قررت أن تكتب إلى – بطريقة خاصة – فقد عادت إلى الصحف والمجلات الأمريكية التى صدرت قبل الحرب . وأقتطعت بعض صفحاتها ووضعتها فى رسالتها ودعتنى إلى قراءة هذه الصفحات لأرى كيف كان

العالم لا يتوقع أن يقوم العرب بقيادة مصر السادات بأى عمل عسكرى . . وكيف كانوا يسخرون تماماً من تصميمنا على استرداد الأرض المحتلة .

وكانت المقالات التى قرأتها – على الفور – تعطى بالفعل صورة قاتمة للوضع العربى المصرى بالذات . وما يهمنى هنا هو ذلك المقال الذى حاول فيه كاتبه أن يحلل شخصية الرئيس السادات . . والظروف التى تعيشها مصر .

وقد صدر المقال (بصورة كبيرة للرئيس السادات وقد جلس فى حديقة منزله وقد وضع على رأسه قبعة كبيرة ، وأخذ يداعب كلبه الخاص) وصورة أخرى على شاطئ البحر . . وبملابس السباحة . وعلق الكاتب على الصورتين بقوله إن هذا الرجل لا يمكن أن يصدر قراراً بالحرب . . وهو لا يعنيه سوى أن يستمتع بحياته وفترة رئاسته إلى أقصى حد . . ! ! ثم انطلق صاحب المقال فى إضافة استنتاجاته الأخرى التى تؤكد رأيه – وأضاف أن الوضع الداخلى فى مصر منهار . . ومتفسخ ، واستشهد بأحداث الطلبة ، وإحدى القصائد التى كتبها شاعر شاب . . معبراً فيها عن اليأس من المستقبل . . وعدم الثقة فى القيادة التى تتسم بالضعف والتردد !

وهكذا حلل الكاتب الأمريكى شخصية وموقف السادات . . وهكذا فعل غيره فى المقالات الأخرى التى تضمنتها رسالة المستمعة . . والطريف الذى لم تعلمه المستمعة حتى الآن . أن الصورة التى ألهمت ذلك الكاتب باستنتاجه القاطع – قد سربتها المخابرات المصرية عمداً إلى الخارج . . وابتلع الرجل وغيره الطعم الخبيث الذى كان جزءاً من خطة الخداع والتضليل التى أعدتها مصر أروع إعداد .

والأهم من ذلك أن الإسرائيليين أنفسهم وصلوا إلى قناعة كاملة بأن السادات ليس الرجل الذى يصدر قراراً بالحرب وأن الوضع العسكرى لقواته لا يشجع على ذلك .

وقد أعرب الإسرائيليون عن ذلك فى تصريحاتهم ،ومقالاتهم حتى إن رسام الكاريكاتير فى صحيفة هآرتس بتل أبيب ظل يسخر برسومه من صياح الرئيس المصرى وأحاديثه عن الإعداد للحرب والتصميم عليها ، كما أشرت من قبل .

بل إننى أتساءل : أى صبر يتحلى به هذا الرجل الذى يقرأ مثلاً فى جريدة الجارديان البريطانية (أعداد ٦، ٧، ٨ مارس سنة ١٩٧٣) مقالات لدافيد هيرست ، يقول فيها « إن السادات مهرج صغير يجب ألا ينظر أحد باعتبار إلى تصريحاته للحرب ضد إسرائيل » ؟ ! ! .

* * *

ترى لماذا آثرت أن أستهل هذا الفصل عن القرار بما جاء فى رسالة المستمعة من أمريكا وما قاله ورسمه الإسرائيليون وغيرهم عن شخصية الرئيس السادات ؟

لعلنى لست بحاجة إلى أن أقول إن تسجيل هذه النظرة لشخصية الرئيس السادات – قبل حرب أكتوبر – يشير إلى أمرين هامين .

أولاً : ليس من شك فى أن القدرة الفذة على إعطاء هذا الانطباع عن الرجل الذى سوف يتخذ القرار الخطير . . كانت عملا بالغ الخطورة والأهمية فى تحقيق عنصر المفاجأة .

ثانياً : أن يتحمل رئيس دولة وقائد أمة . . ألوان التجريح والاستهانة والسخرية من شخصه متذرعاً بالصّبر العظيم . . . من أجل الوصول إلى تحقيق هدف شعبه وأمته – بل أن يساعد هو ورجالهُ على تغذية هذه الحملة ضده – أمر يرتفع إلى مستوى القرار ذاته . . ومستوى البطولة فى تنفيذ القرار .

وقد عبر هو نفسه عن هذه الفترة فقال « أنا عانيت وشفت الأمرين لكن أحمد الله أنه ألهمنى الصمود والصلابة أمام المحن وأمام التحدى . . وأنا أعتقد أن هذه الصفات جزء من تكوين ابن القرية المصرية الأصيلة » .

* * *

السادات وسقنن رع – تاعا الثانى :

إذا كان الرئيس السادات قد تظاهر بهذه الصفات التى جعلت إسرائيل تطمئن تماماً إلى أنه (أضعف من أن يتخذ قراراً بالحرب . وبالتالى فإن شعبه مفكك وضعيف) ، فإنه هنا كان يقف على أرض صلبة من الأصالة والحضارة تمتد جذورها إلى سبعة آلاف عام بل إن هناك شبهاً كبيراً بين دوره هذا . . ودور قائد فرعونى تصدى للهكسوس الذين غزوا العالم العربى (١٥٩٠ ق . م .) وكان دور هذا القائد بداية لأندحار الهكسوس والقضاء عليهم فعندما بلغ الغرور بالملك الهكسوسى أبوفيس حد الأستهانة التامة بفرعون (سقنن رع – تاعا الثانى) أول ملوك طيبة (والد كامس وأحمس) وأرسل له رسولاً يطلب إليه أن يأمر بأن يهجر فرس البحر بحيرته التى فى ينبوع مدينة طيبة الجارى لأنه (أى فرس البحر) لا يسمح للنوم أن يغشاه (ملك الهكسوس) ليلاً أو نهاراً ، إذ أن أصواته مزعجة

فى أذنه ! ! استقبل (سقنن رع – تاعا الثانى) رسول ملك الهكسوس ، وتظاهر أمامه بالضعف والانهيار وقال له : « ارجع إلى الملك (أبو فيس) سيدك وأخبره بأن أى شىء يقوله سأفعله عندما تأتى إلى » . وعاد رسول ملك الهكسوس (أبو فيس) مسافراً إلى المكان الذى فيه سيده الملك ، وعندئذ أمر سقنن رع بإحضار ضباطه العظام وتناقش معهم فى الأمر . . وأكد لهم أنه مصمم على تخليص مصر من نير الحكم (الهكسوسى) .

وقد دلل ملك طيبة على أنه كان داهية بعيد النظر واسع الحيلة فقد كان يعلم أن المسافة بين طيبة و« أواريس » حيث يتمركز ملك الهكسوس حوالى ٥٠٠ ميل وبالتالى فإن الوقت الذى سيستغرقه الرسول فى الذهاب إليها ثم العودة إليه فى طيبة (حاملاً أوامر أبوفيس) سيكون كافياً لإعداد الأمر مع ضباطه العظام . وبالفعل ما إن عاد الرسول إليه حتى فاجأه بأن ظهر أمامه على حقيقته أسداً كاسراً وكأنه لم يكن الملك الضعيف المستعطف بالأمس فقط ، وعاد الرسول من طيبة ليقص على سيده هول ما رأى ، ولكنه قبل أن يصل إليه كان ملك طيبة يقود جنوده نحو الشمال ليصفى حسابه مع الهكسوس وكانت هذه المعركة بداية المعارك التى أنهت الغزو الهكسوسى لمصر وللمنطقة العربية (١).

هكذا تشابه دور الحاكمين المصريين برغم آلاف السنين التى فصلت بين عهديهما وهكذا كان السادات تجسيداً للأصالة والعراقة المصرية .

هل تريدون الذل والعار؟ :

فى أول خطاب له أمام الجماهير – بعد توليه رئاسة الجمهورية – وكان ذلك فى مدينة طنطا – خاطب الرئيس السادات الجموع المحتشدة . . متسائلاً :

« هل تريدون الذل والعار؟ أو تريدون الحرب ؟ »

وجاء رد الجماهير مدوياً . . ملتهباً . . الحرب . . الحرب يا سادات »

كان السؤال – للباحث المدقق – إشارة واضحة إلى رؤية السادات لقضية الحرب والتحرير . . فالبديل للحرب . . هو الذل والعار . . وإن كان هناك شخص واحد فى هذا العالم يقبل الذل والعار فالمؤكد أنه ليس الرجل الذى حمل حياته على كفيه . . وقاوم الاستعمار وتحدى القصر الملكى فتعرض للسجن والتشريد ، ثم شارك بعد ذلك

---

(١) من وثيقة « ساليه » وهى وثيقة من وثائق تاريخ مصر القديمة – ومن كتاب (مصر القديمة) تأليف سليم حسن ، وكتاب (تاريخ الثورات المصرية) تأليف عبد الواحد إسماعيل القاضى .

فى قيادة واحدة من أكبر الثورات فى هذا العصر . .

لكن الكثيرين لم يجهدوا أنفسهم فى الوقوف أمام هذا البعد الهام فى شخصية السادات . .

أما هو فقد نذر نفسه للقضية . . وبدأ خطواته التى كانت ضرورية للتمهيد للقرار . . . فاستعاد للقانون سيادته وأعاد الحريات للشعب (إدراكاً منه لأن الإنسان الحر الإرادة هو وحده القادر على تحرير أرضه) . ثم دخل بعد ذلك فى معركة تصفية مراكز القوى ، وبالرغم من أنه كان يواجه خصوماً يتملكون كل أسلحة وإمكانيات الفوز (كان من بينهم وزير الحربية وقائد القوات المسلحة) ووزير الداخلية ووزير الإعلام ومدير المخابرات وقادة التنظيم الطليعى) ، بالرغم من ذلك فإنه بروح وصلابة المقاتل ، وذكاء وقدرة المناور ، أنهى المعركة فى ساعات فسقطت مراكز القوى ، والتفت الجماهير حوله على الفور لأنها رأت فيما حدث مؤشراً لا يخطئ إلى مستقبل أفضل .

والواقع أن هذه الثورة التصحيحية التى قادها السادات فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ إلى جانب نتائجها الحاسمة فى إعادة بناء الدولة على أسس متينة – بدونها لا يمكن خوض حرب ضارية – كانت بالتأكيد موقفاً يجب ألا يغفله الخبراء والكتاب فى تقييمهم لشخصيته بدلاً من أن يقولوا إن ما حدث مجرد صراع على السلطة وأن سقوط على صبرى ورجاله معناه سقوط الصقور ليبقى جناح الجمائم ، ولكنه على أية حال أراد – وساعدته الظروف فى تحقيق إرادته بأن يبدو أمام العدو والصديق فى صورة العاجز أو العازف عن اتخاذ قرار خطير كقرار الحرب . وكان هذا كما قلت مدخلاً هاماً إلى النصر .

هل يتحد العرب ؟

بعد إعادة ترتيب « البيت » – انطلق السادات إلى تهيئة بقية الظروف الملائمة للحرب فكانت تحركاته الواعية المكثفة بين الدول العربية ، لا تعوقه حساسيات ولا يعبأ بحملات الهجوم التى يتعرض لها من هنا أو هناك .

وكانت بداية نجاحه فى هذه التحركات تتمثل فى إعلانه أكثر من مرة أنه لا يسعى لزعامة أو يشغله شىء سوى أن تضع الأمة العربية إمكانياتها الهائلة لخدمة المعركة فلا تتعطل هذه الإمكانيات نتيجة التفتت والتفسخ والإغراق فى الصراعات ما بين نظام رجعى ونظام تقدمى ، أو ما بين حزب حاكم هنا . . وحزب حاكم هناك .

وقد عبر هو عن منهجه فى حديث له أمام مجلس الشعب حين قال :

« **إن موقفنا من وحدة العمل العربى هو أننا نرحب بكل تعاون وتنسيق بين القوى العربية على امتداد مناطقها الجغرافية ، ومع تباين أنظمتها الإجتماعية ففى لحظات المصير العربى ، ينبغى أن نرتفع فوق كل الصراعات ، وفوق كل الخلافات لنذكر الخطر الواحد الذى يتهددنا جميعاً بغير تفرقة أو تمييز** » .

وقد أكد السادات على أنه لا يسعى إلى الزعامة – قولاً وعملاً – فأشرك كل القادة العرب فى التفكير معه . . طرح عليهم تصوراته المختلفة طالباً المشورة فى تقرير الأمور ، بل إنه لم يفعل ذلك وهو جالس فى مكتبه بالقاهرة بل تحرك بنفسه والتقى بهم فى دولهم حتى إنه جاء وقت كان فيه المتابع لرحلاته هو أو معاونوه يكاد يلهث وراءهم من عاصمة عربية إلى أخرى .

هذا ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن الوحدة العربية التى كشفت عن نفسها قوية وهائلة فى حرب أكتوبر ، كانت واحدة من أعظم إنجازات السادات فى المجـال السياسى ، بل إن النظرة الموضوعية تضع هذا الإنجاز السياسى الفذ . . فى مستوى الإنجاز العسكرى ، وحين ألتقى الإنجازان العظيمان . . أحدثا ما يشبه الصدمة الكهربيـة للعالم فأفاق على الحقيقة التى كانت قد توارت منذ فترة ليست بالقصيرة وهى أن الأمة العربية لديها الإمكانيات البشرية والمادية التى تجعلها القوة السادسة فى المجتمع الدولى . . .

وقد تحدث كتاب عالميون – بإفاضة واسعة – عن الوحدة العربية فى حرب أكتوبر ودور السادات فى تحقيقها ، وكيف أضاف الانتصار العسكرى مزيداً من عوامل بروزها وفعاليتها .

ومن هؤلاء الكتاب الصحفى البريطانى جون بلوك الذى يقول فى كتابه الضخم (الاعداد للحرب !)

« لقد كان خطأ يستعصى على الفهم أن العرب ظلوا سنوات طويلة يستنفدون معظم وقتهم فى الصراع والخلاف بين بعضهم دون أن يوجهـوا هذه الطاقة إلى عدوهم » .

ثم ينتقل (جون بلوك) بعد ذلك إلى أستعراض مظاهر وآثار اتحاد العرب فى حرب أكتوبر . . ويقول عنه :

« إن الاستجابة العربية الجماعية لم تأت من قبيل الصدفة ، ولكنها كانت ثمرة لجهود السادات على مدى عدة أعوام » . .

مع المغفور له جلالة
الملك فيصل . ملك
السعودية

ومع الرئيس الجزائرى
بومدين

مع ياسر عرفات . . وخطوة نحو توحيد العرب للمعركة

توالت لقاءات السادات مع جميع القادة العرب

ويتناول الكاتب الكبير تفاصيل تحركات السادات . . ونحن إن كنا لن نسترجع معه هذه التفاصيل فإننا نتوقف أمام رؤيته لأهم جوانبها (دون أن يعني ذلك تسليماً كاملاً بوجهة نظره) يقول جون بلوك . . « إن أعظم النتائج أهمية لتحركات السادات فى المجال العربى التى اتسمت بالصبر الشديد ، هى أنه استمال إلى جانبه اثنين من أبرز القادة العرب . . يمثل كل منهما إحدى الكتلتين الأساسيتين فى العالم العربى ، فالملك فيصل الذى كان القائد الذى لا ينازع لمجموعة الدول « المحافظة » كان قادراً على أن يضمن وقوف جميع الدول البترولية الغنية خلف مصر .

ومن جهة أخرى كان « بومدين » برصيده الثورى . . هو الرجل الذى يستطيع أن يضمن مشاركة الدول ذات الاتجاه التقدمى . . بألا تقف ضد هذا الأسلوب فى توحيد العمل العربى ، بل تقبل الدول البترولية من هذه الكتلة أن تلتزم بالخطوط التى تضعها المملكة العربية السعودية . حين تأزف ساعة المعركة ، ويتحتم استخدام سلاح البترول .

ولم تكن هذه الجهود الهائلة لتتم فى ظروف مواتية تماماً ، بل إن الصعاب كانت كثيرة ، وما يتجدد منها كان يهدد ما تم إنجازه بالفعل . ولذلك فإن الشهور الأولى من عام ١٩٧٣ شهدت نشاطاً أكثر تكثيفاً . ويقول (جان كلود جيبوه) عن هذه الفترة : « برزت مع مطلع عام ١٩٧٣ عقبة كأداء كان يتعين التغلب عليها ، وهى ظهور انقسامات داخلية فى العالم العربى وحتى يمكن النيل من إسرائيل كان يتعين على العرب أن يهاجموا وفى الوقت نفسه على جبهتين إن لم يكن على ثلاث غير أن سوريا المتشددة ما كانت لتقبل خطة للحرب وهدفاً لها . . سوى ما تتصوره هى ، وكان الملك حسين يملك أطول حدود مشتركة مع إسرائيل ولكنه أصبح – بعد صدامه مع المنظمات الفلسطينية ، مرفوضاً من العالم العربى ، بما فى ذلك مصر وسوريا اللتان قطعتا علاقاتهما الدبلوماسية معه . كما أنه فى الوقت نفسه لم يكن مستعداً لخوض غمار مخاطرة عسكرية جديدة بعد ١٩٦٧ .

ولكن السادات أخذ بتؤدة وصبر يمد الجسور بين المتطرفين فى دمشق وبين الرجل المنادى بالتهدئة فى عمان لقد كان السادات يلعب دور الحكيم المتزن .

خطوة أخرى إلى الأمام جدًّا :

فى بداية صيف ١٩٧٣ واصل السادات بدأب ومثابرة تحركه نحو الهدف ، وفى يوم ١٢ من يونية التقى بالرئيس حافظ الأسد ، واتفقا على خطة الحرب وهدفها ، وبعد ذلك نجحت جهوده فى استعادة ملك الأردن إلى الصف العربى – ولو بالحد الأدنى فى المشاركة – (وقد ساعد فى ذلك الملك فيصل) ، وشهد شهر أغسطس عدة لقاءات بين المبعوثين المصريين والسوريين والأردنيين ، وتمت خطوات حاسمة على طريق إزالة الرواسب القديمة ، بتوقف الهجوم الإعلامى – الفلسطينى السورى – على الأردن ، وأصدر الملك حسين بدوره قراراً بالعفو الشامل عن ٧٤٥ فدائياً فلسطينياً كانوا معتقلين فى سجون عمان منذ سبتمبر ١٩٧٠ . . وهكذا – وكما يقول مؤلف الأيام المؤلمة فى إسرائيل – أصبح الطريق منذ ١٢ سبتمبر ١٩٧٣ ممهداً أمام الرئيس السادات .

الضربة التى بدت وكأنها « طائشة » :

فى تهيئته الدءوب لكل الظروف الملائمة لأتخاذ القرار الكبير وتنفيذه أصدر الرئيس السادات قراراً فى ١٧ يولية ١٩٧٢ . . . تلقاه العالم أجمع والدهشة تسيطر عليه ! وتوالت التحليلات . . وتدفقت التعليقات . وكان الخيط الذى يربط بينها جميعاً هو سوء الفهم لشخصية السادات . . فقالت عواصم كثيرة « إنها ضربة طائشة ! ! وقال محللون وخبراء كثيرون « ألم نقل لكم إنه لن يحارب ؟ ما معنى هذه الخطوة إذن ؟ « وقال وزير الدفاع الإسرائيلى ، والفرحة تتراقص على وجهه : ليس هناك من هو أسعد منى فى إسرائيل كلها الآن » .

ولكن ما هذه الضربة التى طاشت كل تفسيراتها وتحليلاتها ؟

لكى تكون الإجابة شاملة ، نرجع مع الأحداث إلى فترة سابقة لهذا القرار الضربة « فبعد أسبوعين من وفاة جمال عبد الناصر ، وتولى أنور السادات لرئاسة الجمهورية بعد استفتاء ١٦ أكتوبر ١٩٧٠ كان عليه أن يواجه أكثر التحديات سخفاً (على حد تعبير كاتب فرنسى كبير) . كان عليه أن يؤكد حتمية المعركة وكان هو أول من يدرك أن أستكمال بناء القوات المسلحة يحتاج إلى المزيد من الأسلحة المناسبة ومنذ عام ١٩٧١

سادت لهجة التهكم حول وعود السادات بالحرب ، وارتفعت هذه اللهجة وزادت صخبا وعنفاً بعد خطابه فى ٢٠ نوفمبر من هذا العام حين أعلن فى ثالث أيام عيد الفطر « إن ساعة القتال قد حانت لأنه لم يعد هناك أمل فى إمكان إحراز أى حل سلمى ، إن قرارنا هو القتال ، وإلى أن يصدر الأمر بالعبور أطالبكم يا رجال القوات المسلحة بأن تجروا تدريبات مكثفة وقاسية .

وأن تتذكروا أن العبور سيكون دائماً فى أتجاه واحد وسنلتقى فى المرة القادمة فى سيناء بمشيئة الله » .

كان السادات يبنى حساباته على وصول الأسلحة المطلوبة من الاتحاد السوفييتى لكى يكتمل الاستعداد لدخول الحرب ، لكن عام ١٩٧١ مضى ، دون أن يتحقق فيه أى حسم ! ! وأقبل عام ١٩٧٢ وبدأت شهوره تتوالى دون أن يظهر فى الأفق ما يوحى بوصول الأسلحة الروسية . وبدأ الأمل يتلاشى . . فمع سياسة الوفاق الأمريكية السوفييتية أصبح واضحاً أن حالة اللا سلم واللا حرب تروق الدولتين الكبيرتين « كما قال هو فيما بعد » .

وقبل أن نصل إلى ١٧ يوليو ١٩٧٢ موعد الضربة التى طاشت فى تفسيرها كل التحليلات والدراسات . . نستعيد بعض المواقف التى توضح كيف مر عام الحسم دون حسم ، وكيف جاء العام الذى يليه دون أن يحمل فى طياته ما يحقق إمكانية الحسم .

فى مايو ١٩٧١ تمت إقالة على صبرى . . واعتبر السوفييت هذه الخطوة عملاً غير ودى تصوراً أن السادات أقال رجلهم فى مصر . . وهكذا بدأ التوتر الشديد فى العلاقات ، الذى تصاعد بتصفية مجموعة على صبرى كلها فى نفس الشهر الذى حضر الرئيس السوفييتى بودجورنى فى أواخره وطلب عقد معاهدة بين مصر والأتحاد السوفييتى وألح فى طلبه مؤكداً أنها تضع العلاقات بين البلدين على أساس واضح سليم وقال له السادات إن المشكلة فى العلاقات بين البلدين هى « الثقة » ولذلك فإنه قد قبل توقيع المعاهدة لإزالة كل الشكوك التى تهز هذه الثقة – وفى اللقاء نفسه أثار مع بودجورنى موضوع قاذفات القنابل التى سبق أن طلبها ، وقال له الرئيس بودجورنى وهو يحرك أصابعه : « عد على أصابعك أربعة أيام ، وفى اليوم الخامس ستصل الطائرات وسيتدرب عليها الطيارون المصريون وبكل شروطك »

ولم تمر أيام فقط بل مرت ستة أشهر دون أن يصل شىء ! وسافر السادات إلى موسكو ،

وثارت مناقشات واسعة أنتهت بأن قال برجنيف « أسمع يا سيدى إن الأسلحة التى تتضمنها قائمتكم وقيمتها ٥٠٠ مليون روبل سوف تكون عندكم قبل نهاية العام (١٩٧١) » .

وأعاد السادات حديثه عن أهمية وصول هذه الأسلحة . . حتى يتم الحسم فعلاً فى هذا العام ، وأكد للمسئولين السوفييت على أن قرار الحرب هو قرار مصرى ، وأن مصر لا تريد جندياً سوفيتياً واحداً يحارب من أجلها ، وأنها لا تسعى إلى مواجهة بين روسيا وأمريكا .

وعاد السادات إلى مصر . . منتظراً وصول الأسلحة المتفق عليها لكن الشهور المتبقية من العام مرت كسابقاتها ، ووقعت حرب الهند وباكستان فى ٩ ديسمبر من العام نفسه ، وقال المسئولون السوفييت إنهم مشغولون حينما طلب السادات أن يسافر إليهم ، وحددوا له الرابع من فبراير من عام ١٩٧٢ موعداً للزيارة . وكان ذلك معناه إلغاء عام الحسم !

وتشبث أنور السادات بأهداب الصبر ، وتحمل ردود الفعل الساخرة داخلياً وخارجياً ، ثم سافر إلى موسكو فى الموعد الذى حددته القيادة السوفييتية ، وسافر مرة أخرى فى أبريل . . دون أن يحدث أى تطور فى الموقف السوفييتى .

وتم بعد ذلك بأيام لقاء نيكسون بالقادة السوفييت ، وأعلن عن سياسة الاسترخاء العسكرى فى منطقة الشرق الأوسط ، وطلب السادات تحليلاً من الزعماء السوفييت بعد زيارة نيكسون عن النتائج المتوقعة ، وأعرب عن إحساسه بخطورة مرور الوقت .

وبعد ١٥ مايو وصل التحليل السوفييتى ، وكان تحليلاً نظرياً غير محدد . ورد الرئيس السادات على الزعيم برجنيف برسالة حدد فيها خطة عمل تعبر عن رأى مصر فى سبع نقاط محددة ، وطلب الرئيس رداً سريعاً لأن الوقت يجرى .

ومرت ثلاثة أسابيع ولم يرد الزعماء السوفييت . .

واستدعى الدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء وقتئذ السفير السوفييتى وأعرب له عن ضيق مصر بالصمت السوفيتى واعتبارها لعدم الرد على طلبها إهانة غير مقبولة .

وجاء الرد – مع ذلك – فى ٨ يوليو – أى بعد شهر ونصف من رسالة السادات وطلب السفير السوفييتى مقابلة الرئيس وتم ذلك فى يوم السبت (واستمع الرئيس السادات إلى الرد السوفييتى (صفحتان ونصف صفحة) ، وكانت الصفحة الأولى شرحاً للجهود التى بذلها الزعماء السوفييت لإقناع نيكسون بأن يتضمن بيان موسكو إشارة إلى قرار مجلس الأمن ومهمة يارنج ، وأن الحكومة الأمريكية ستكون بعد انتخابات

الرياسة فى وضع تقدر فيه مصالحها . ثم تابعت الصفحة الثانية من الرسالة تفنيداً لما يقال من أن الأتحاد السوفييتى يرى فى مصلحته بقاء حالة اللاحرب واللاسلم وأن من ينشرون هذه الدعوة هم أعداء الأتحاد السوفييتى . وتضمنت هذه الصفحة سطوراً عن أن المعركة تحتاج إلى إعداد شعبى ونفسى وإلى تهيئة الروح المعنوية للحرب وإعداد الدولة لها .

ولم تشر الرسالة إلى موضوع الأسلحة المطلوبة إلا فى السطر الأخير منها . . . وكانت الإشارة كالتالى « بالنسبة لمطالبكم من الأسلحة فهى موضع دراسة »

هكذا كانت الرسالة التى بعث بها القادة السوفييت ! ! وقد أستمع إليها الرئيس السادات وهو يبذل جهداً كبيراً فى السيطرة على أعصابه بصبر بالغ حتى أنتهى من سماعها ، ثم أسند يده على عصاه ، ونظر إلى السفير السوفييتى بغضب وسأله :

– هل أنتهت الرسالة ؟

وأجاب السفير : نعم

فقال الرئيس : هل هذه هى كل الرسالة ؟

ورد السفير: نعم

فقال السادات : هذه الرسالة مرفوضة شكلاً وموضوعاً ، وأنا لا أقبل أن يجىء لى رد بعد شهر ونصف وبهذا المضمون وكفى . . إننى تحملت هذا الأسلوب عاماً ونصف عام .

لم ينفذ برجنيف وعده لى فى مارس ١٩٧١

لم ينفذ برجنيف وعده لى فى مايو ١٩٧١

لم ينفذ برجنيف وعده الثالث فى أكتوبر ١٩٧١

وغضبت جماهير الشعب المصرى وتحملت ، واتهمتكم الجماهير ، ودافعت أنا عن مواقفكم لأننى حريص على أستمرار الصداقة والتعاون ، ولكننى أطلب منك الآن أن تبلغ الزعماء السوفييت أننى لن أتحرك على مزاج الاتحاد السوفييتى . أنتم غير جادين معنا . . لقد اتفقتم مع الأمريكان على تجميد الموقف وعدم قيام المعركة ولكننى لن أقبل وصاية منكم ولا من أمريكا » .

. . . إذن لقد وصلت العلاقة مع الأتحاد السوفيتى إلى موقف يحتاج إلى مراجعة وهكذا تأكد للسادات أن قراره بالحرب يحتاج إلى تغيير فى الظروف القائمة المتصلة

بهذه العلاقة ثم إنه ربط هذا الموقف القديم الجديد . . بنظرته إلى وجود قوات سوفيتية (تتمثل فى الـ ٢٠ ألف خبير ومستشارسوفييتى) وكيف أن هذا الوجود سيكون عائقاً فعلياً عن المعركة وخاصة أن وسائل الإعلام الإسرائيلية كانت تركز على أن أية حرب قادمة معناها اشتراك جيش سوفييتى فيها .

وكان لابد من قرار . . وهذا ما تم فى ٨ يوليو ١٩٧٢ ، حين أملى السادات على مستشاره حافظ إسماعيل التعليمات التالية :

ابتداء من نفس الليلة (٨ يوليو ١٩٧٢) تعتبر كل طرق التعامل مع الاتحاد السوفييتى موقوفة :

١ – تنهى خدمات الخبراء السوفيت فى مصر .

٢ – المبانى العسكرية التى يعمل فيها هؤلاء الخبراء تصبح ملكاً لمصر .

٣ – الأسلحة الموجودة بهذه المواقع إما أن تباع لمصر صباح ١٧ يوليو أو تسحب ابتداء من هذا التاريخ الذى يعلن فيه القرار .

هكذا استمع العالم فى ١٧ يوليو ١٩٧٢ إلى قرار إنهاء وجود الخبراء السوفييت فى مصر . . وكانت ضربة مفاجئة للتفكير العادى الذى يتابع الموقف فى الشرق الأوسط . وطاشت كما قلت – التفسيرات والتحليلات .

وقيل إنها ضربة طائشة !

وأعرب موشيه ديان عن سعادته البالغة بنتائجها التى ستكون فى صالح إسرائيل تماماً . . وقال البعض أن الرجل أعرب عن نواياة الحقيقية فأثبتت هذه الخطوة التى قام بها أنه لن يحارب . فكيف له ذلك وقد جرد جيشه من مساعدة الخبراء السوفييت كما حرمه من مصدره الرئيسى للسلاح ؟

وقال البعض إنه يساوم أمريكا ويرتمى فى أحضانها بحثاً عن حل سلمى وقد قدم لها ما تريد (من إنهاء للوجود السوفييتى) على طبق من فضة . . وقال كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية إنه يتعجب من شخصية أنور السادات الذى لم يساومه على قرار إخراج الخبراء السوفييت قبل أن يتخذه !

وقال بعضهم الآخر إن القرار جاء نتيجة لرفض الاتحاد السوفييتى لطلب مصر بأن تحارب قوات سوفييتية بالنيابة عنها . .

ولعل الزاوية التى دارت حولها معظم التحليلات والتعليقات . . هى التأكيد على

أن مصر أصبحت بهذا القرار ضعيفة منهارة .

فمثـــلاً قال جيم هوجلاند مراسل الواشنطن بوست الأمريكيـــة وكان ذلك فى ٢٦ / ٧ / ٧٣ :

« علم فى القاهرة أنه فى نوفمبر ١٩٧٢ اقتربت طائرتان إسرائيليتان على مسافة ٥٠ كيلو متراً من القاهرة ذاتها دون أن ينجح المصريون فى إطلاق الصواريخ عليهما . وقد تم إطلاق صاروخ واحد وكان ذلك بعد أن أستدارت الطـائرتان الإسرائيليتان فى اتجاه سيناء . . لقد أصبحت الكفاءة القتالية للمصريين منذ رحيل السوفييت سيئة للغاية ، مما يجعل تجدد الحـــرب بمثابة انتحار للجيش المصرى ! ! ؟

وقال مراسل مجلة « الإكسبريس » الفرنسية – فى أبريل ١٩٧٣ « إن إسرائيل تختبر بصفة منتظمة النظام الدفاعى الجوى ، وتدل النتائج التى توصل إليها الخبراء العسكريون أن مصر أصبحت تشبه كيساً فارغاً ، فأجهزة الرادار فيها شبه عمياء ، كما تتسم ردود فعل أجهزة الدفاع الجوى عندها بالبطء والخمول » .

وبالنظرة نفسها . . قال مراسل الفيجارو الفرنسية (لا يترى وجاردان) فى ٨ فبراير ١٩٧٣ :

« إن الجيش المصرى لم يكن جريحاً فى أى وقت مثلما هو الآن . . فلم يعد لديه مستشارون سوفييت أو روح للقتال ! !

ويأتى بعد ذلك محرر مجلة الطيران وأبحاث الفضاء الأسبوعية الأمريكية فينهى كل جدل ، أومناقشة لنتائج قرار السادات فيقول : « لقد أغلقت مصر جميع قواعد الصواريخ الموجودة بها ، وذلك نتيجة لرحيل المستشارين السوفييت منها ، وكذلك بسبب نقص الخبرة المصرية اللازمة لتشغيلها » .

ثم سؤال وجواب :

وجه مذيع إسرائيلى سؤالاً لأهارون ياريف وكان رئيساً للمخابرات الإسرائيلية فى ذلك الوقت . . وكانت توصف قوته كرجل مخابرات « بأنه كان يخرج الأرانب من تحت قبعته » . . كان السؤال : ما آثار رحيل الخبراء السوفييت من مصر . .

وأجاب : إن رحيلهم سوف يضعف مصر عسكرياً وخاصة فى مجال الدفاع الجوى . . ولن يستطيعوا دخول حرب قريبة . .

هكذا تدفقت التحليلات والدراسات . . ولكن أحداً لم يتوقف بالدراسة العميقة أمام مغزى القرار ، ويربطه بشخصية السادات نفسه . لم يذكر أحد أن هذا القرار يعنى أن السادات يريد أن يدخل الحرب دون أن تكون يداه مغلولتين وأنه يوفر الظروف الملائمة لتحرير إرادة القرار التاريخى قرار الحرب والتهيئة له . لم يتنبه أحد إلى أن السادات أراد بهذا القرار أيضاً أن يجعل القادة السوفييت يعيدون النظر فى أسلوب تعاملهم معه ، بما يضع العلاقة المصرية السوفييتية فى وضعها الصحيح . . وقد نجح هذا الهدف بالفعل ، وإن كانت المحاولة قد تعثرت بعد ذلك إلا أن الحد الأدنى منها قد تحقق فعلاً .

ولم يتنبه أكثر المحللين ذكاء إلى أن هذا القرار الخطير يحمل فى طياته معنى استعداد مصر لدخول الحرب دون أن يكون على أرضها خبير روسى واحد ، حتى لا يقال إن هناك من يحارب للمصريين وخاصة أن قادة إسرائيل وعلى رأسهم الجنرال موشيه ديان رددوا مثل هذه الادعاءات أثناء حرب الاستنزاف فكانوا يبررون سقوط طائراتهم الفانتوم أوتدمير المدفعية المصرية لمواقعهم وتجمعات مدرعاتهم بأن الخبراء الروس هم الذين يقومون بهذه الأعمال لأن المصريين لا يمكن أن يفهموا أو يستوعبوا الأسلحة الحديثة والتخطيط العلمى !

وأيضاً لم يتنبه أكثر المحللين عمقاً وذكاء إلى أن هذا القرار كان تعمية استراتيجية بعيدة المدى . فإذا كان الانطباع الأول يقول إن مصر بالاستغناء عن الخبراء السوفييت – قد فقدت السند الرئيسى لقواتها المسلحة وأنها بذلك أصبحت أضعف من أن تفكر مجرد التفكير فى الحرب – إذا كان هذا هو الانطباع الأول ، فإن المحلل الذكى ما كان يجب أن يتوقف أمامه ويظل محصوراً داخل دائرته ، فالبديهى أن رئيس دولة فى موقف خطير لا يقبل بأن يجرد نفسه من سلاح ما قبل أن يكون واثقاً من قوته واستعداده ! !

وخاض جولة أخرى من أجل القرار الأكبر :

يحمل السادات قدره على كتفيه ، ويتحرك فى مختلف الاتجاهات التى تقود إلى الطريق الملائم للقرار الأكبر « قرار الحرب » – فجنباً إلى جنب مع جهوده لتجميع الرأى والفعل العربى ، ومع تحرير الإرادة المصرية بما فى ذلك من لفت نظر القيادة السوفييتية إلى ضرورة تعديل أسلوب تعاملها مع مصر . . . ومع المحاولات المضنية لتوفير العتاد والسلاح من مصادر شرقية وغربية – جنباً إلى جنب مع ذلك كله كان

على السادات أن يواجه موقفاً جديداً له جذوره القديمة .

بعد أن تمت عملية إنهاء مهمة الخبراء السوفييت فى يوليو ١٩٧٢ ، استدعى الرئيس السادات الفريق أول محمد صادق (وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة) إلى الاجتماع به فى استراحته بالمعمورة فى منتصف أغسطس . . وفى هذا الاجتماع ، وضع الرئيس أمام القائد العام تصوره للموقف فى ضوء الظروف القائمة وهى :

١ – تجمد العلاقة المصرية مع الاتحاد السوفييتى فى أعقاب إنهاء مهمة المستشارين السوفييت .

٢ – انشغال الولايات المتحدة فى المعركة الانتخابية التى سيتم حسمها فى ٧ نوفمبر من ذلك العام . وبالتالى عدم قدرة الرئيس الأمريكى (نيكسون) على اتخاذ أى خطوة فيما يتعلق بتحريك القضية العربية تجاه السلام

٣ – مرحلة السكون التى أحاطت بالقضية ذاتها .

وفى ضوء هذا التحليل انتهى الرئيس السادات إلى تحديد استراتيجية جديدة تقوم على أساس استثمار الوقت الباقى من أغسطس إلى منتصف نوفمبر – بعد حسم المعركة الانتخابية فى أمريكا لإعداد القوات المسلحة لكسر وقف إطلاق النار ، وبالتالى كسر الجمود الذى أحاط القضية . . وحتى يتحقق هذا أمر الرئيس السادات الفريق صادق بأن يستدعى فوراً المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وأن يبلغهم رسالة القائد الأعلى ، وأن يبدأ معهم على الفور فى إعداد خطة وضع جميع القوات فى أعلى مراحل الاستعداد لشن هجوم شامل (ويكون هذا الاستعداد مكتملاً اعتباراً من ١٥ نوفمبر ١٩٧٢) .

وبعد يومين من هذا الاجتماع عاد الفريق صادق إلى الرئيس السادات وأبلغه أنه جمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة وأبلغ أعضاءه رسالة وأمر القائد الأعلى ، وأنهم من فرط حماسهم قد طلبوا إلى صادق أن ينقل إلى الرئيس أن أوامره سوف تكون معدة للتنفيذ اعتباراً من أول نوفمبر وليس من ١٥ نوفمبر كما تضمنت رسالته .

واعترض السادات على هذا التحديد خشية أن يكون الحماس سبباً فى التسرع بما يحتويه من أخطار ، وطلب إلى صادق أن يعود إليهم ليفهمهم أن تحديد « ١٥ نوفمبر » مرتبط باستراتيجية وحسابات واضحة ، ومنها مثلاً أن الرئيس الأمريكى نيكسون سيعاد انتخابه فى ٧ نوفمبر ، وهو يريد أن يترك له فرصة ترتيب الأمور ومواجهة الأوضاع

العالمية المتغيرة ، ومن ثم كان تحديد يوم « ١٥ نوفمبر » لا لكى يبدأ المعركة الشاملة فى ذلك التاريخ ، وإنما لتكون القوات المسلحة كلها فى وضع استعداد كامل لتحريك القضية حين يقتضى الأمر .

وكان معنى استراتيجية السادات بالنسبة للقائد العام للقوات المسلحة هو انتقال القوات من الوضع الدفاعى الذى كانت فيه – أوالمفروض أن تكون فيه – حتى ذلك الوقت ، إلى وضع هجومى ، تكون قادرة على تحقيقه اعتباراً من منتصف نوفمبر ، وبحيث يترك للرئيس السادات باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة . . اختيار الخطة التى سيتم تنفيذها من بين الخطط البديلة التى سيضعها صادق مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وأيضاً أختيار موعد تنفيذه المعركة .

. . التصرفات الغريبة ، وتزايد الشكوك :

فى أكثر من لقاء تم بين الرئيس السادات بعد ذلك وبين الفريق صادق ، كان سؤال الرئيس لصادق عن الخطط التى طلب إعدادها ، ولاحظ الرئيس أن وزير الحربية يتهرب باستمرار من عرض هذه الخطط ، فتزاحمت الشكوك فى نفسه ، وخاصة أنه كان يصله أولاً بأول ما يلقيه الفريق صادق من خطب فى القوات المسلحة ، وكان قد بدأ يتابع تصرفات الذين اختارهم صادق أعواناً له .

وكقائد أعلى للقوات المسلحة ، وكعادته فى حسم الأمور ، قرر الرئيس السادات أن يضع حدًّا لمحاولات صادق فى التهرب من عرض خطة الهجوم ، وخاصة أن الوقت الذى حدده لإنهاء هذه الخطة قد أوشك على الاقتراب ، ومن ثم قرر الرئيس دعوة المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٧٢ ليطمئن معهم على التجهيزات التى تمت من أجل المعركة . .

. . وتوالت المفاجآت المذهلة ! !

عقد الرئيس السادات الاجتماع الهام وهو مطمئن إلى أن أعضاء المجلس الأعلى – وهم القادة الذين سيشاركون مسئولية الحرب قد أوشكوا على الانتهاء من تنفيذ أوامره ، ووضع الخطط الكفيلة بأن تكون القوات المسلحة جميعها – جوية وبحرية وبرية – جاهزة للهجوم اعتباراً من ١٥ نوفمبر – وكان هدف الرئيس أن يطمئن على مراجعة هذه

الخطط معهم ، بالإضافة إلى نتيجة فرعيـة تتمثل فى إزالة الشـكوك التى بـدأت تترسب لديه من تصرفات وزير الحربية . وحتى تكون الصورة واضحة تماماً أمام أعضاء المجلس فلقد بدأ الرئيس السادات اجتماعه معهم بسرد كل التفاصيل الخاصة بجهوده المضنية مع الاتحاد السوفييتى من أجل السلاح ، بما شملته هذه الجهود من أربع زيارات إلى موسكو ، ووعود متكررة ، ثم تطورات الموقف ، وإنهاء مهمة الخبراء السوفييت ، بحيث يبدأ من هذا التاريخ اعتماد القوات المسلحة على خبراتها وحدها ، والتجهيز للمعركة بما لديها من السلاح .

وخلص الرئيس السادات من هذا السرد إلى إعادة التصور الذى سبق أن طرحه على الفريق صادق فى اجتماعه به فى منتصف أغسطس والذى انتهى بتحديد المهام الجديدة التى كان على أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة تنفيذها ، وفى ضوء الرسالة التى أرسلها إليهم مع القائد العام للقوات المسلحة الفريق محمد صادق .

المفاجأة الأولى :

لم يكد الرئيس السادات ينتهى من عرضه الشامل ، حتى رفع اللواء نوال سعيد – قائد الإمداد والتموين . يده ليسأل عن مضمون هذه الرسالة التى أشار إليها الرئيس ، ولم يكن هو لديه أى فكرة عنها ! !

مفاجأة مثيرة ! ! جعلت الرئيس يلتفت إلى الفريق صادق الذى كان جالساً إلى يمينه ، وسأله مندهشاً : كيف يستفسر عضو المجلس وقائد الإمداد والتموين عن مضمون الرسـالة التى من المفروض أنه تلقاها مع زملائه ؟ مع أن صادق نفسه أبلغه بعد يومين من اجتماعه به فى الإسكندرية أنه جمع المجلس كله ونقل إلى أعضائه رسالة الرئيس وأوامره بالإعداد للمعركة الشاملة اعتباراً من منتصف نوفمبر ؟ وقد تحمسوا جميعاً لدرجة أنهم – كما قال هو – طالبوا بأن يكون التجهيز للمعركة مكتملاً من أول نوفمبر وليس من « ١٥ نوفمبر » .

المفاجأة الثانية :

جاء رد الفريق صادق على تساؤل الرئيس المتعلق بالمفاجأة التى أظهرها استفسار قائد الإمداد والتموين ليكون مفاجأة ثانية ، فقد مال صادق على الرئيس ليقول له فى همس – حتى لا يسمعه باقى أعضاء المجلس – إنه لم يبلغ جميع الأعضاء برسالة الرئيس وأوامره ، وأنه اكتفى بإبلاغها لقادة الجيوش حفاظاً على السرية .

كشفت هاتان المفاجأتان كل الأستار ، وتأكدت معهما كل الشكوك فها هوذا الرئيس السادات يكتشف أن وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة ، قد كذب عليه حين أبلغه بأنه نقل رسالته إلى أعضاء المجلس . ثم ها هوذا الوزير والقائد العام يكذب مرة أخرى فى محاولة لتبرير كذبته الأولى – فيدعى أنه لم يبلغ جميع أعضاء – المجلس برسالة الرئيس للحفاظ على سريتها . كذبة واضحة وعذر أقبح من ذنب ! !

وكان من الطبيعى أن يتساءل الرئيس : سرية على من ؟ على الأعضاء الذين سيفكرون معاً ، ويدبرون معاً لكل أبعاد المعركة ؟ على قائد الإمداد والتموين وهو الذى سيكون مسئولاً حين تبدأ المعركة عن توفير حاجة القوات المحاربة من غذاء ومياه وذخيرة ووقود ؟ كيف ذلك ؟ كيف يمكن تخيل جيش يحارب ويستعد لمعركة وهجوم شامل دون أن يعلم مدير الإمدادات والتموين وعضو المجلس الأعلى للقوات المسلحة . .

المفاجأة الثالثة :

لم يقتصر الأمر المثير على المفاجأتين السابقتين ، فقد استنتج الرئيس السادات اهتزاز الموقف الدفاعى لقواته وخاصة أن هناك خطة معدة فعلاً لذلك ، فلم يكن من المتصور أن تكون هناك رقابة مستمرة على صادق فى متابعة هذه الخطة الدفاعية وإنما على العكس كانت مسئوليته أن يراقب استمرارها لكن الذى حدث هو أن الفريق صادق ألغى جهود الدفاع وإلى درجة وضح فيها من حديث اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث ، أن الإسرائيليين استمروا فى تعلية الساتر الذى يقيمونه حتى وصل إلى ارتفاع سبعة عشر متراً ، مع أن قواتنا قد أوقفت عمليات التعلية لساترها ومن ثم غابت الجبهة الإسرائيلية تماماً عن بصر ونظر الجنود المصريين ، فى الوقت الذى تكشفت فيه أوضاع القوات المصرية لجنود العدو ، وكان من نتيجة ذلك أن سادت بإحساس الشيء المجهول قصص

مختلفة عما يخبئه الإسرائيليون وراء ساترهم من حصون وأسلحة إليكترونية . وكان الجنود المصريون لا يستطيعون تكذيب هذه القصص التى وصلت إلى حد الأساطير بل لعلهم كانوا يتناقلونها هم أنفسهم ، وسواء صحت هذه الحكايات أولم تصح فإن الشيء المؤكد أن القوات الإسرائيلية كانت تستطيع فى ذلك أن تقوم بأى تحركات فى مواقعها بالشرق دون أن يتم رصدها ، كما أنها كانت تستطيع أن تقوم بأى عمليات على الضفة الغربية وتعود دون التعرض لأى خسارة حقيقية ، بسبب انهيار الموقف الدفاعى للقوات المصرية عما كان عليه من قبل !

بهذه الصورة توالت المفاجآت المثيرة والمفجعة ، وكان على السادات أن يدرس ويستنتج ويصدر القرار بأسرع ما يمكن . . وبالفعل فوجئ العالم بقرار إقالة الفريق أول صادق . وكانت خلفية هذا القرار غير عادية وكانت كافية جداً لكى تكشف المزيد من أبعاد شخصية السادات ولعلنى أحدد ملامح هذه الخلفية فى النقاط التالية :

١ – كان الفريق صادق قد حقق لنفسه نوعاً من الشعبية بين القوات المسلحة نتيجة للأضواء التى أحاطت به فى ثورة ١٥ مايو التصحيحية ونتيجة لاستثماره للثقة التى منحها له الرئيس السادات ، فأعطى بعض الميزات المادية للضباط ، وأكثر من لقاءاته وخطبه بين أفراد القوات المسلحة معطياً لنفسه صورة القائد الحريص على رجاله ، المحب لهم ، المشغول بتجنبهم أى حرب إلا إذا ضمن لهم النصر مائة فى المائة . وكان من الطبيعى أن تثمر هذه الخطوات والتحركات وخاصة أن رجاله كانوا يضيفون إلى صورته ما يحقق له هذه الشعبية .

٢ – كان الفريق صادق – من وجهة أخرى – قد وضع أصدقاءه فى مواقع حساسة فى الجيش . . فكان منهم الفريق عبد القادر حسن نائب وزير الحربية واللواء على عبد الخبير قائد المنطقة المركزية وآخرون . . وقد وصلت الثقة بهم فى أنفسهم إلى الحد الذى جعل – مثلا – عبد القادر حسن يتحدث إلى الرئيس بشكل غير لائق فى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة .

٣ – كان هناك نوع من الحرج بالنسبة للرئيس السادات حين يجد نفسه مضطراً إلى اتخاذ قرار ضد الفريق صادق الذى كان له دور فى مواجهة مراكز القوى وتصفيتها .

٤ – كان اتخاذ مثل هذا القرار يفتح المجال ويعطى الذريعة لموجة جديدة من الهجوم عليه ، والتأثير على الجبهة الداخلية .

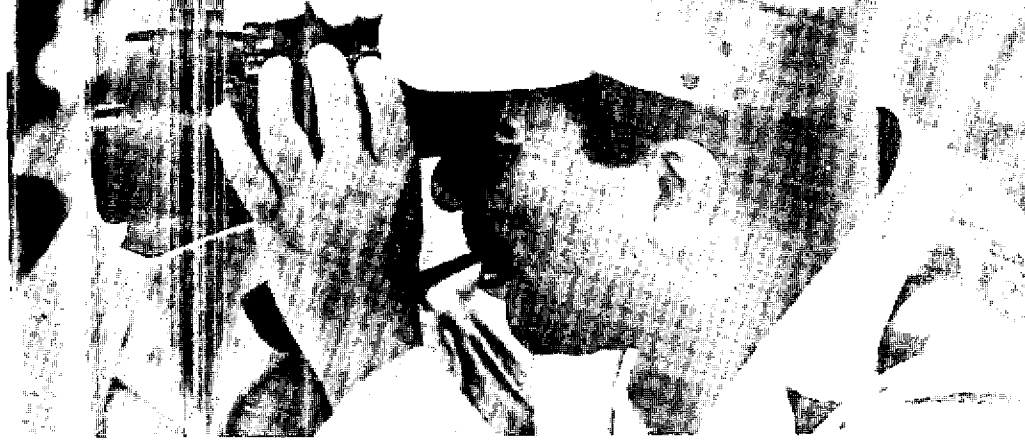

الرئيس السادات يتابع إحدى المناورات التى سبقت الحرب

الرئيس السادات مع المشير أحمد إسماعيل على ف
جوا من أبطال القوات المسلحة

بنفسه كان يتابع ويناقش الضباط والجنود أثناء الاستعدادات

تلك كانت الظروف التى تشكل خلفية القرار ، ولعلها توضح إلى أى حد كان السادات سريعاً فى حسمه ، مفاجئاً فى توقيته ، جريئاً فى اتخاذ قراره – مصمماً على القرار الأكبر وهو قرار الحرب الذى عبر عنه فى نهاية اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة بقوله للأعضاء « أنا معروض على حل جزئى . بس مش أنا اللى أقبله وييجى حد غيرى يقبله . أنا بتكوينى وبطبيعتى ما اقبلش حل جزئى ولا زلت مؤمن بالجندى المصرى ، ومؤمن بأننا نقدر نعمل حاجة وأنه أشرف لنا أن احنا نموت واحنا واقفين ورأسنا فى سابع سماء من أننا نتخاذل ونقبل أى حاجة ! ! »

إذن أنهى السادات هذه الجولة هى الأخرى – لصالح القضية . لصالح القرار بالحرب لتحرير الأرض والكرامة – وكما كانت العادة معه – اختلفت وتباعدت التفسيرات التى جاءت على ألسنة وأقلام المراقبين والكتاب والأفراد العاديين .

– وقالوا إن السادات أقال الفريق صادق لأنه كان السبب فى خروج الخبراء السوفييت وأنه رغبة منه فى إصلاح الموقف مع روسيا جعل منه كبش فداء .

– وقالوا إنه أقاله لأنه كان يسعى إلى الحرب وغيره يسعى للسلام .

– وقالوا وكتبوا عن استراتيجية صادق التى تقوم على أساس الحرب الطويلة التى تهدف إلى تحرير كل سيناء مع أن السادات يريدها حرباً قصيرة خاطفة .

– وخرجوا من هذه التفسيرات التى يتناقض بعضها مع بعض كما تتناقض مع الواقع خرجوا منها إلى حكم عام بأن القرارات تصدر بدون دراسة وبطريقة عفوية عشوائية . وأن نظام الحكم لا يستند إلى منهج محدد أوعقيدة ثابتة .

خلط شديد . . وانزلاق مستمر إلى هوة عدم الفهم ، لكن السادات بصبره العظيم تحمل الهجمات الجديدة على شخصه وحكمه . طاوياً جوانح نفسه على الأسرار التى أدت إلى القرار ، لأن إعلانها فى ذلك الوقت كان يعنى تهديد أمن الدولة وتعريضها لمخاطر عديدة .

وبدأت عجلة الإعداد العسكرى تسير بقيادة الفريق أحمد إسماعيل على الذى حلّ مكان الفريق صادق وزيراً للحربية وقائداً عامًّا للقوات المسلحة ، وكان الرجل على مستوى المسئولية كما أثبتت الأحداث بعد ذلك .

الحلقة الأخيرة فى دائرة التمهيد والإعداد :

كانت مظاهر النجاح تعلن عن نفسها فى الخطوات التى تتم على طريق التمهيد والإعداد لقرار الحرب . . وكانت هذه الخطوات لا تكتمل بدون التحرك السياسى على المستوى العالمى حتى يهيأ الرأى العام الدولى لقبول خطوة الحرب حلاً للقضية المعلقة .

وخرجت من القاهرة رسائل عديدة إلى زعماء العالم تضعهم أمام مسئوليتهم وتشهدهم على أن مصر لم تترك باباً للحل السلمى دون أن تطرقه لكن إسرائيل هى التى ترفض الاتجاه نحو السلام . وقد أثمر هذا التحرك نتائج طيبة ، وعاد المبعوثون من معظم الدول وهم يؤكدون أن القادة الرؤساء الذين ذهبوا إليهم أصبحوا على قدر معقول من تفهم القضية . . بل التعاطف مع الموقف العربى . وقد تبلور ذلك فى المواقف التالية :

القارة السمراء تحتضن القضية العربية :

خلال ١٨ شهراً من العمل الدبلوماسى المصرى ، تم تضييق الخناق على إسرائيل ، وكشف مواقفها المتعنتة ، وتعرية أساليبها الاستعمارية داخل أفريقيا كلها . فقطعت ثمانية دول أفريقية علاقاتها مع إسرائيل بالإضافة إلى غينيا ، وبمجرد اندلاع الحرب قطعت زائير علاقاتها هى الأخرى مع إسرائيل . وقبل أن تتوقف الحرب لم يكن لإسرائيل علاقات دبلوماسية إلا مع أربع دول ليست كاملة الاستقلال ، وتخضع لنوع من التبعية لجنوب أفريقيا العنصرية .

والواقع أن هذا الموقف الأفريقى شكل خطورة حقيقية بالنسبة لإسرائيل ، إذ أنها كانت قد تغلغلت بشكل كبير فى معظم دول أفريقيا حتى إن اقتلاعها من هذه الدول كان مستبعداً تماماً . ولكى نتبين أهمية أفريقيا بالنسبة لإسرائيل نتوقف أمام هذه التصريحات لبعض القادة الإسرائيليين .

– قال بن جوريون فى المؤتمر الصهيونى الخامس والعشرين .

« إن المستقبل الاقتصادى لإسرائيل ، ووضعها الدولى يتوقفان على الروابط التى تقيمها مع أفريقيا وآسيا ».

– وقال أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق :

«إن مستقبل الأجيال المقبلة فى إسرائيل مرتبط إلى حد كبير بنشاطنا فى القارة الأفريقية » .

– وقال موشيه ديان بعد أن عاش تجربة الخروج الإسرائيلى من أفريقيا :
« إن الموقف الجديد الذى اتخذته أفريقيا حيا لنا لابد من أن يحسب حسابه !

وأوربا تخطو على طريق تفهم الحق العربى :

بشكل عام نستطيع أن نقول إن التحرك الدبلوماسى فى أوربا والذى تمثلت ذروته فى جولات حافظ إسماعيل مستشار الرئيس . ومحمد حسن الزيات إلى موسكو ولندن وواشنطن وبون وبكين ونيودلهى « هذا التحرك أوجد أرضاً خصبة للقبول بالحل العربى للقضية ، حتى إن عدداً من المسئولين أعربوا عن ضيقهم بالتعنت والتعسف الإسرائيلى . . وكان موقف فرنسا الديجولية يمثل قمة التفهم للحق العربى كما أن ثمة تغييراً ملموساً ظهر فى مواقف ألمانيا الغربية وإنجلترا وعدد غير قليل من دول العالم الغربى .

هكذا تم بصبر وذكاء وجهد هائل تهيئة المسرح المصرى والعربى والأفريقى والعالمى . . لصدور قرار الحرب .

* * *

وهكذا تمت « تعمية » إسرائيل ، وربما العالم معها – بالنسبة لقدرة القيادة المصرية على اتخاذ قرار الحرب .

ولعل المراقبين الذين لم يفهموا شخصية السادات ، وبالتالى استمرأوا نقده والسخرية منه ومن قدرته على الحسم ، لعلهم قد فوجئوا مع إسرائيل فى « ٦ أكتوبر ١٩٧٣ » أنهم قد خانهم ذكاؤهم تماماً . ولعلهم حين يعودون إلى دراستهم له . . سوف تستوقفهم المواقف العديدة التى ذكرتها فى هذا الفصل ، ويقولون لأنفسهم كيف لم نتوقع أن يصدر الرجل قراراً خطيراً كقرار الحرب .

إن كل الدلائل كانت تشير إلى أنه رجل قرار ورجل مفاجأة لا تنقصه الجرأة فى اتخاذ أخطر القرارات ، ولا تعوزه القدرة على استغلال عنصر المفاجأة ولا يؤخذ عليه أنه اتخذ قراراً غير مدروس أو لم تعد له الظروف الملائمة .

١ – فى مايو ١٩٧١ اتخذ قرار تصفية مراكز القوى ، وفاجأ به المراقبين فى الداخل والخارج ، وحقق الهدف من قراره بشكل متكامل .

٢ – فى يوليه ١٩٧٢ اتخذ قرار إنهاء مهمة الخبراء السوفييت وفاجأ به الاتحاد السوفييتى نفسه مثلما فاجأ به العالم كله وأثبتت الأيام أنه حقق الهدف من قراره .

٣ – فى أكتوبر ١٩٧٢ أصدر قرار إقالة وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة الفريق محمد صادق . وقد فاجأ العالم بهذا القرار ، وحقق الأهداف المنشودة منه .

. . هكذا كانت المؤشرات تدل على أن السادات لا بد أنه سيتخذ قراراً بالحرب لكنهم – كما قلت – لم يفهموا مؤشراً واحداً منها . ولعل السادات نفسه كان أكثر الناس سعادة بعدم الفهم الذى أحاط به ، حتى لونتج عن ذلك أن تدمى قلبه ومشاعره سهام النقد والتجريح من العدو والصديق .

وهذا هو المعنى الذى اعترف به أكثر من كاتب وخبير عالمى حين قالوا « لقد كان السادات محظوظاً إلى حد كبير عندما لم يثق أحد فيما كان يقول » .

وإننى أسمح لنفسى بأن أقول إن مصر بل العالم العربى كله كان محظوظاً بوجود شخصية السادات فى هذه الفترة الحرجة إذ أنه من البديهى أن هذا الكم الهائل من عدم الفهم لشخصيته والشعور « الواثق ! ! » بأنه ليس القائد الذى يعطى الإشارة لبدء حرب ضارية – قد ساعد إلى أقصى حد فى تحقيق عنصر المفاجأة الذى كان له تأثيره ولاشك فى إحراز النصر العربى ليكون طوفانًا هائلاً يجتاح معه الكثير من دعائم إسرائيل . وليمحو فى الوقت نفسه الصورة المهينة الذليلة التى كادت ترتبط بالإنسان العربى منذ كانت نكسة ١٩٦٧ .

وكان . . القرار :

نصل الآن إلى القرار الأكبر . . قرار الحرب الذى سبقته هذه الخطوات الشاقة والخطيرة وليس ثمة شك فى أن قراراً بالحرب يحتاج لمثل هذه الخطوات والقرارات التمهيدية ، ثم يحتاج إلى جانب ذلك كله إلى تفكير لا يهدأ إلا ليبدأ من جديد ودراسة تحيط بكل الدقائق والتفاصيل ومقارنات لكل البدائل المطروحة واحتمالاتها ، ثم إنه يحتاج إلى استلهام لا يخطئ لأحاسيس ومشاعر الشعب الذى سيصبح طرفاً أو موضوعاً لهذا القرار .

وإذا كانت هذه هى المقدمات الطبيعية والضرورية لأى قرار بالحرب ، فإن اتخاذ قرار الحرب فى عام ١٩٧٣ وفى الظروف المتشابكة المعقدة محليًّا وعالميًّا ، وفى مواجهة تحديات وصعوبات بدت أحيـاناً وكأنها المستحيل يقف متمثلاً فى أشياء مجسدة كالمانع المائى وحصون خط بارليف والتفوق الجوى للعدو ، والخلفية النفسية التى تعطى

لجنوده جرعة عظيمة من الثقة ثم شبح النكسة الذى أقام حاجزاً من الخوف والرهبة أمام أى تحرك عسكرى عربى . . كل ذلك يؤكد أن القرار فى هذه الحالة – أعظم خطراً وأجل شأناً ، ومن هنا فإن مسئولية اتخاذه – التى تقع عادة على القائد وحده – مسئولية بالغة الخطورة فهو يعرف أنه يمسك فى لحظة تاريخية بمصير شعب أو مصير أمة ، وأنه بناء على هذا القرار سيتحدد مصير هذا الشعب وهذه الأمة بل إنه قد يمتد بتأثيره إلى العالم كله . هو يعلم أيضاً أنه لا يمكنه أن يستعيد هذا القرار بمجرد اتخاذه انه كما يقول مؤلفا كتاب حرب الساعات الست كالمقذوف النارى الذى لا يمكن استرداده بأى حال من الأحوال وقد يكون من الممكن مواجهة الموقف بعد ذلك باتخاذ قرارات أخرى لاحقة ولكن القرار الأول يكون قد نفذ وسبق السيف العزل . وهذا ما يؤكده ويضيف إليه الرئيس السادات بنفسه حين يقول :

« لم يكن القرار سهلاً . كانت كل الحسابات والموازين فى غير صالح القرار ولم يكن ممكناً بكل مقاييس العصر لو أننا أدخلنا كل المعلومات والدراسات والورق فى كومبيوتر لكان الجواب دائماً : « لا » . . لقد كنا مهزومين من الداخل ، وكانوا هم مسيطرين على كل شىء ، وكانت روح الهزيمة متفشية بين العرب ، وحتى المثقفون الذين كان يجب أن يكونوا أكثر تفهماً أصيبوا باليأس – وهكذا لو كنا سألنا أى كومبيوتر لكان الجواب « لا » . . بل لعله كان يتهمنا بالجنون لمجرد التفكير فى الحرب ويستطرد الرئيس السادات فى حديثه – عن القرار – فيقول :

لقد واجهنا الهزيمة فى ١٩٦٧ كواقع ، ولكن كان هناك شىء فى أعماقنا يرفضها . كان عنصراً غير محسوب ، ومقياساً لم يكن أحد يدركه ، صادراً من داخلنا ومن أعماق أعماقنا . كان شيئاً من حضارتنا من أصالة سبعة آلاف عام ، من أرضنا أرض الخلود التى نرتبط بها منذ بدء الخليقة .

هذا العنصر غير المحسوب هو الحضارة والأصالة والتاريخ ، هو الإلهام والتصور الذى كان وراء القرار ! ! »

نظرة أخرى على القرار :

١ – أن يقودك قدرك إلى تحمل مسئولية اتخاذ قرار بالحرب أمر خطير ! !

٢ – أن يكون قدرك أقسى وأصعب فيضعك فى مواجهة مسئولية اتخاذ قرار بالحرب

فى منطقة حساسة ومضطربة كمنطقة الشرق الأوسط ، وفى ظل ظروف متشابكة وبالغة الدقة والتعقيد محلياً وعالمياً . أمر جد خطير ! !

٣ – أن يكون قدرك بالغ القسوة فيجعلك مسئولاً عن اتخاذ قرار الحرب فى مثل هذه المنطقة ومثل تلك الظروف – مضافاً إلى هذا وذلك أن كل الحسابات العملية والعلمية والمقاييس العصرية تكون ضد القرار بشكل حاد . . فهنا لا يكون الأمر خطيراً فقط ولكنه يصبح مخيفاً ومتحدياً لقدرة أى إنسان يقترب منه مجرد الاقتراب وليس اتخاذه بالعقل .

– لكن السادات فعلها .

– تحدى كل مخاطر ومخاوف القرار .

– ومن هنا لا تصبح العملية مجرد اتخاذ قرار بالحرب – وهذه مهمة صعبة فى حد ذاتها كما أوضحت السطور السابقة – ولكنها بالتأكيد تصبح ممارسة لأقصى مراحل البطولة .

– وهذا ما شهد به العالم حين فتح عينيه ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ . . وظل يلهث مع أحداث الحرب إلى أن توقف إطلاق النار فإذا بالقرار (الذى تحدى كل الحسابات وكل المقاييس) يكشف عن جوهر البطولة الكامنة فيه ، وإذا بالرجال الذين حملوا القرار بين جوانحهم وانطلقوا إلى تنفيذه عندما حانت ساعة الصفر يثبتون أن العنصر غير المحسوب (وهو الحضارة والأصالة والتاريخ) . أقوى من كل العناصر التى تحمل توقيع « الكومبيوتر » قمة التقدم فى الفكر والاختراع البشرى ! !

أمر القتال :

« إلى القائد العام للقوات المسلحة المصرية الفريق أول أحمد إسماعيل على : . . يتعين عليك وعلى القوات المسلحة المصرية أن تزعزع نظرية الأمن الإسرائيلى من جذورها ، تلك النظرية التى روجوا لها فى العالم ، وأقاموا عليها حجمهم واستراتيجيتهم فى التوسع واحتلال الأرض العربية » .

هكذا حدد أمر القتال – الذى وجهه القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس محمد أنور السادات إلى الفريق أحمد إسماعيل على وزير الحربية والقائد العام ، حدد أهداف القرار الإستراتيجية وهى تحدى نظرية الأمن الإسرائيلى وضربها وتدميرها ، وكان أول

عناصر هذه النظرية – كما هو معروف – قدرة جيش الدفاع وتفوقه المطلق بما يحقق له دائماً بالأسلحة المتفوقة كما ونوعاً إمكانية الردع المستمر ، وإرهاب العرب ، ومن هنا وحيث إن هدف القرار تحدد بتدمير نظرية الأمن ، فإن المهمة تحددت بتدمير القوات المسلحة الإسرائيلية عن طريق إيقاع أكبر الخسائر بها فى معركة تكون طويلة ما أمكن .

أخطر اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية :

كان اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى ذلك اليوم « الأول من أكتوبر عام ١٩٧٣) أخطر اجتماعاته فقد أعطى فيه الفريق أحمد إسماعيل على تمام الحرب لرئيس الجمهورية بعد أن جلس قادة الأسلحة المختلفة ، كل واحد منهم يعرض مهمة قواته وخططها ثم نوقشت الخطة العامة بكل تفاصيلها وتبادل الرئيس السادات مع الفريق أول أحمد إسماعيل كلمتين قصيرتين توقف وسيتوقف أمامهما التاريخ طويلاً .

قال الرئيس السادات لأعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة :

« أحمد الله أننا وصلنا إلى هذه اللحظة ، لنضع اللمسات الأخيرة على العمل ، ونقول للعالم إننا أحياء ، ويسترد شعبنا ثقته فى نفسه وفيكم ، وأنا واثق أن كل فرد فى قواتنا المسلحة سيؤدى واجبه كاملاً لإحساسه بمسئولياته تجاه وطنه ، وسأتحمل معكم المسئولية كاملة تاريخيًّا ومعنويًّا وماديًّا ، وفى الوقت نفسه فإننى واثق ثقة كاملة فيكم ، وبأنكم سوف تتصرفون بكل ثقة واطمئنان وحرية » .

ورد الفريق أول أحمد إسماعيل على كلمة الرئيس التى سرى فى كل حروفها نبض التاريخ فقال له :

« باسم القادة ، وباسم القوات المسلحة نعاهدكم ، ونعاهد شعب مصر أن نبذل أقصى جهد بتحمله بشر لتحقيق النصر لبلدنا ، ولتثقوا فى أن القادة متفائلون ، وفى مقدورهم تحقيق مهامهم وأننا نشترك جميعاً معكم فى المسئولية » .

قالوا . . عن الرجل . . والقرار :

١ – واحد . . من أحكم وأذكى السياسيين فى هذا القرن :

« أثبت الرئيس أنور السادات ببعد نظره أنه واحد من أخطر وأذكى السياسيين فى هذا القرن ، فقد أدرك أن جعجعة الأصوات العالية لن تغير شيئاً ، وأن الانتظار الصابر لكى تأخذ القرارات العادلة للأمم المتحدة مجراها أولكى تتدخل الدول الكبرى لن يجدى شيئاً فالأصوات فى الأمم المتحدة لا قيمة لها ما لم يساندها قدر ولو قليل من الحديد والنار ، ومن ثم كانت الحاجة إلى عمل عسكرى ناجح ، أولاً : بما فيه الكفاية لكى يعيد إلى العرب ثقتهم بأنفسهم ، وثانياً : لكى يرغم الدول الكبرى على إخراج مشكلة الشرق الأوسط من ركودها الذى كانت قد انتهت إليه بسبب العجز العسكرى العربى السافر فى حرب يونية ١٩٦٧ » .

(توقيع)
مؤلفو الكتاب الصادر عن صحيفة الصنداى تايمز
بعنوان (بماذا كسب السادات)

٢ – القدرة على المفاجأة :

لقد استطاع الرئيس السادات تحريك قواته المسلحة فى مناورات عسكرية ضخمة إلى أن فاجأ إسرائيل بهجومه الناجح فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

(توقيع)
المحرر السياسى والعسكرى لمجلة شبيجل
الألمانية الغربية فى ٢٢ مايو ١٩٧٤

٣ – ليتنا صدّقنا السادات :

يقول الكاتب الإسرائيلى « هنرى كرمل » (فى فبراير ١٩٧٤) :
« . . كان قادتنا باستمرار يقولون لنا – قبل حرب يوم الغفران – إن الجيش الإسرائيلى

قادر على مجابهة كافة الجيوش العربية على كل الجبهات فى وقت واحد ، وأنه يستطيع فى سهولة ويسر – القيام بطردها وسحقها فى بضعة ساعات أوأيام قلائل . . .

وهكذا تلقينا فى إسرائيل التصريحات التى كان يلقيها الرئيس المصرى محمد أنور السادات عن الإعداد للحرب ، والتى لم نكن نصدقها بطبيعة الحال باستخفاف وسخرية . .

« . . فى يوم ٢٥ مارس ١٩٧٣ ، كان الرئيس المصرى يقدم حكومته الجديدة إلى الشعب المصرى قال : « إن دور هذه الحكومة ينحصر فى ضرورة الإعداد كى تخوض مصر الحرب القادمة »

ومنذ ذلك التاريخ ، لم يكد يمضى يوم إلا وتنشر الصحف فى جميع أنحاء العالم خبراً أوتحليلاً حول احتمالات قيام الحرب المقبلة بين مصر وإسرائيل ، فى ٢٨ مارس ١٩٧٣ كتبت صحيفة « النهار البيروتية » مقالاً افتتاحياً جاء فيه : « إن القوات المصرية تنقل ليل نهار إلى منطقة القناة ، بينما أعلنت مصر حالة التأهب القصوى بين وحدات الجيش المصرى الذى ينتظر أفراده صدور قرار الحرب المتوقعة بين لحظة وأخرى » .

يضيف المعلق « هنرى كارمل » قائلاً :

« . . وكنا فى إسرائيل نتلقى هذه الأنباء على اعتبار أنها مجرد محاولات للضغط على حكومتنا ذلك أن الرئيس السادات لم يتوقف – منذ أن تولى الرئاسة – عن التهديد بالحرب ضدنا لتحرير أراضيه المحتلة ، وكان المسئولون عندنا يرفضون مجرد التفكير فى أن مصر تنوى حقيقة شن حرب شاملة . . وكانوا يقولون :

« هل يحاول المصريون – على أحسن الفروض – عبوراً فى قطاع صغير على القناة من نقطة واحدة لإقامة رأس جسر على الضفة الشرقية ؟ . . إن إعادتهم إلى رشدهم فى هذه الحالة ثم القيام بسحقهم لن تستدعى جهداً يذكر من قوات جيش الدفاع الإسرائيلى وفى ذات الفترة قام رئيس تحرير مجلة النيوزويك الأمريكية – أرنودى بجراف – بزيارة مصر ، ليكتب بعدها مقالاً افتتاحياً جاء فيه : إنه فى حالة قيام مصر بمحاولة عبور القناة ، فإن إسرائيل سوف تحقق نصراً ساحقاً ، بتلك الطريقة المتألقة التى نعرفها عنها ، وحينئذ سوف يصفق لها العالم إعجاباً كما فعل فى عام ١٩٦٧ . . »

ومضينا رويداً نحو « مصيدة الحمقى » ! :

يقول « هنرى كرمل » : « لقد كان الرئيس السادات يجرنا رويداً رويداً فى اتجاه مصيدة الحمقى دون أن نشعر . . فلقد أجرى المصريون – عام ١٩٧٢ – مناورة ضخمة قرب القناة شملت عملية عبور كاملة بجميع تفاصيلها على مرآى من جنود الجيش الإسرائيلى فى تحصيناتهم شرق القناة وقد استأثرت هذه المناورة بمساحات واسعة من صفحات الجرائد المصرية كان خبراؤنا العسكريون فى تل أبيب والقدس ينظرون إليها بسخرية وعدم تصديق . . حتى إن صحيفة « على همشمار » الإسرائيلية نشرت على صدر صفحاتها الأولى تعليقاً ساخراً على هذه المناورة المصرية للعبور قالت فيه :

« . . يبدو أن تدريبات العبور التى أجراها المصريون خلال الآونة الأخيرة فى جزيرة البلاح بالقطاع الأوسط من قناة السويس ، لا تزيد عن استخدام أحد أساليب الحرب النفسية حيث إنها تنفذ على مرأى من جنودنا على الضفة الشرقية للقناة . لقد استخدمت القوات المصرية فى هذه المناورة الدبابات البرمائية إلى جانب مختلف وسائل إقامة الجسور ، والأمر الذى يدعو للسخرية أنهم يقومون بذلك فى منطقة القناة ، على الرغم من توفر الكثير من المناطق داخل مصر للقيام بمثل هذه التدريبات غير المجدية ، لقد نظر جنودنا وضباطنا باستهزاء إلى هذه المناورة ، لأن الجزيرة التى يقوم المصريون بالعبور إليها تقع فى نطاقهم ، ولا – تقابلهم فيها أية مقاومة ، هذا ويسود منطقة القناة حالة من الهدوء التام ، فالجنود المصريون – فى خلاف أيام المناورات – لا يبدون أية يقظة ، ويشاهد أغلبهم فى حالة استرخاء بالقرب من خط المياه ، ويقوم ضباطهم بدفعهم إلى القيام بأعمال التحصين والحفر . . » .

يضيف المعلق الإسرائيلى :

« . . لقد خلق المصريون الانطباع لدينا – بواسطة أنباء علنية للنشر ، بأن المناورة الأخيرة التى أطلقوا عليها اسم (صلاح الدين) لا تعدو كونها مجرد مناورة عبور أخرى وهكذا لم يوضع الجيش الإسرائيلى – للمرة الأولى والحاسمة – فى حالة تأهب عالية لمواجهة مناورة بهذه الضخامة » .

ويختتم (هنرى كرمل) تحليله قائلاً :

« . . ليتنا صدقنا السادات . . إننا لم نأخذ تهديداته بالحرب مأخذ الجد بل إنه كلما

كان يكثر من الحديث عن الحرب . . كنا فى إسرائيل نزداد إيماناً بابتعاد شبح الحرب وأخذ كلامه على محمل التهديد وامتصاص الغضب الشعبى على وقوع رقعة من الأراضى المصرية – شبه جزيرة سيناء – تحت الاحتلال الإسرائيلى ، وهكذا لم نفق على الحقيقة إلا فى يوم الغفران الأسود – هكذا يطلق عليه « كرمل » – لقد وقعنا جميعاً فى إسرائيل فى « مصيدة الحمق » التى أعدها لنا بذكاء شديد الرئيس السادات . . « تحت ستار اتباع أسلوب إجراء المناورات الكبرى » التى دأبت القيادة المصرية – اعتباراً من عام ١٩٧١ – على تنفيذها بين الحين والآخر بهدف تخدير قياداتنا وإدخال السكينة فى روع المؤسسة العسكرية لدينا . . . . » .

٤ – تفكيره الهادئ . . وثباته غير العادى :

إن الرئيس السادات قد حقق بالفعل أنتصاراً شخصياً فريداً . لقد غيرت تلك الساعات الأولى من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ عندما عبر الجيش المصرى قناة السويس ، واقتحم خط بارليف – غيرت هذه الساعات مجرى التاريخ بالنسبة للقائد والبلد ، وعلى الأرجح بالنسبة للشرق الأوسط كله .

لقد استعاد الشعب المصرى أخيراً ثقته بنفسه ، واستعادت الأمة العربية دورها الرائد فى هذه المنطقة من العالم . فى خلال السنوات الثلاث التى انقضت منذ تولى السادات الحكم حتى ٦ أكتوبر ٧٣ ظل يؤكد باستمرار على نغمة الحرب من أجل استعادة سيناء .

ولابد أن الأمر تطلب تفكيراً هادئاً للغاية لكى يضع الرئيس السادات هذا الهدف نصب عينيه بثبات طوال هذه السنوات .

ولقد برهن السادات على أنه يتمتع بهذا القدر من الثبات بل أكبر منه . فإنه بالتفكير فى هذا الاتجاه دون أن يحيد عنه ظل يعمل فى صمت لتحقيق هدفه المحدد .

(توقيع)
هارولد سيف
مراسل الديلى تلجراف
١٩٧٣/١٠/٣٠

٥ – مهندسها . . ومصممها :

لقد غير الرئيس السادات (الذى ترجع جذوره إلى الريف) تاريخ الشرق الأوسط إن السادات هو مهندس ومصمم حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ مع إسرائيل . وهو المنظم الرئيسى للمقاومة العربية بالبترول .

وقد أتت الحرب والمقاطعة بثمار يانعة عندما بدأت القوات الإسرائيلية فى بداية عام ١٩٧٤ فى الانسحاب من الأراضى المصرية ، وكانت تلك أول مرة منذ أكثر من عشرين عاماً تتخلى فيها إسرائيل عن أرض احتلتها .

وفى المراحل الأولى للحرب أعطى السادات للعالم العربى أول مذاق للنصر بعد ٢٥ عاماً من الهوان العسكرى على أيدى الإسرائيليين ، فلأول مرة فى أربع حروب لم تتراجع القوات المصرية ، بل على العكس من ذلك فإن المشاة المصريين أغاروا بسرعة على التعزيزات الإسرائيلية على الضفة الشرقية للقناة وقضوا عليها وانتشروا بعشرات الآلاف فى مواقع داخل سيناء وإلى عمق ١٢ ميلا .

وفى هذه العمليات دمر المصريون الأسطورة الإسرائيلية بأن إسرائيل قوة لا تهزم ، وأزاحوا عن أنفسهم عقدة نقص عششت فى نفوس جيل بأكمله من العرب .

(توقيع)
دافيد ريد
فى مقال له بمجلة ريدرز دايجست

وتخليت عن اقتناعى باحتمال وقوع الحرب :

« حتى عام ١٩٧٢ كنت أشعر شخصيًا أنه لا مفر من حرب جديدة بيننا وبين العرب ، ولكن فى عام ١٩٧٣ وبعد أن اتضح من السادات رفضه للحرب وكذلك بعد إخراج المستشارين الروس من مصر ، أصبت أنا أيضاً بروح التفاؤل التى هبت فى صفوف الجيش الإسرائيلى .

وبقى الأمر كذلك إلى أن صرح موشيه ديان وزير الدفاع ، فى صيف ١٩٧٣ بأنه

لا يتوقع قيام حرب واسعة بين إسرائيل والعرب خلال العشر سنوات « القادمة وأن حدود الدولة ستبقى كما هى » .

(توقيع)
زئيف شيف
المحرر العسكرى لصحيفة هآرتس

٧ – يرون . . . ولا يبصرون :

« كانت إسرائيل قد كونت صورة معينة للرئيس السادات تقوم على أساس أنه يذهب فى استعداداته للحرب إلى آخر الحدود . . إلى حافة الهاوية . . وعندئذ يعود مرة أخرى أدراجه . . ولما كانت التعبئة تتكلف مبالغ طائلة ، فإنهم وبناء على هذه الفكرة الخاطئة عن شخصية السادات اعتقدوا أن الأمر سيمر مثل المحاولات السابقة ، . . واعتقدوا أنها مناورات أخرى تجريها القوات المصرية ، وسرعان ما تنتهى ، ثم مالوا إلى ابتلاع وسائل الخداع الأخرى التى ألقتها إليهم القيادة المصرية ، وأصبحوا بذلك يرون ولا يبصرون يرون بأعينهم ولا يصدقون ما يرونه . .

(توقيع)
الجنرال حاييم هيرتسوج
(فى كتابه حرب التكفير

٨ – رجل لا يعرف الخوف :

« إن الرئيس أنور السادات لم يتراجع وهو يسير فى طريقه المملوء بالصخور ، وظل متمسكاً بالاعتدال ، وإن معدن الرجال يظهر ، كما يحدث للبحارة عندما تهب الرياح ويرتفع الموج ، وقد أثبت الرئيس السادات أنه رجل دولة لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا مما جعله يثير إعجاب الجميع . لقد شعرت مصر أنها استردت كبرياءها الوطنى بعد حرب أكتوبر » .

(توقيع)
الكاتب الأمريكى هنرى تيلور

٩ – هارى ترومان العرب :

« وبعقلية السياسى المحنك ، آثر السادات أن يخوض كثيراً من المواقف الصعبة قبل أن يرسل بقواته فى هجومها العاصف على الدفاعات الإسرائيلية لكى تسترد الثقة والكرامة العربية » .

إن حرب أكتوبر لها أبطالها ، لكن البطل الحقيقى هو الرجل الذى أعد المسرح لها ورتب كل شىء ، الرجل الذى قرر بهدوء شديد – ماذا يجب عمله ، ونفذ ما قرره فى وجه صعاب هائلة ومشاكل مريرة . . لقد تجاهل وتجاوز النقد الذى وجه إليه – حتى داخل مصر – بينما كان يتابع سياسته . وقد أظهر فى النهاية أنه قائد له قدرة على إعطاء القرار .

إن السادات هو هارى ترومان العرب ، الذى تحققت عظمته ، حين أعد لكل شىء عدته كأفضل ما يكون الإعداد » .

(توقيع)
جون بلوك
فى كتابه الإعداد للحرب

١٠ – حين أجاد السادات التنكر فى أزياء مختلفة :

إن الرئيس المصرى السادات أجاد التنكر فى أزياء مختلفة فأصم آذاننا . إنه خلق من الفوضى نظاماً وانتهز أنسب الأوقات ليرمينا بغضبته المصرية .

لقد دبر خطته فى صمت وهدوء . . وكانت تدعو بحق إلى الإعجاب . . وقد نفذها بطريقة إن وصفت بشىء فهى اللباقة والذكاء .

ولذلك فقد خاض الشعب اليهودى حرباً لم يعرف لها مثيلا فى شراستها وضراوتها وكان النجاح والتفوق حليف العرب .

(توقيع)
الكاتب الإسرائيلى المشهور
إفرائيم كيشون

١١ – هذا الرجل . . كاسحة ألغام :

إن أنور السادات كاسحة ألغام . . إنه يعرض نفسه لكل الخطورة ، ولكنه فى النهاية . يمهد الطريق أمام الجميع . تماماً مثل كاسحة الألغام التى تقتحم المياه التى زرعها العدو بالألغام ، لتمهد الطريق وتجعله آمناً أمام غيرها من البوارج والمدمرات وقوارب الطوربيد وغيرها .

إن هذا الرجل . . يتصف بالشجاعة والحكمة والبصيرة فى آن واحد » .

(توقيع)
وزير خارجية بريطانيا وقطب حزب العمال
جيمس كالاهان
أكتوبر ١٩٧٥

١٢ – هل كان السادات يتصور ؟

« هل كان الرئيس السادات يتصور – وهو يطلق فى ظهيرة السادس من أكتوبر قواته المسلحة لعبور القناة – انه إنما أطلق قوة عاتية رهيبة كان من شأنها تغيير هذا العالم ؟!

إن كل شىء ، من أوربا إلى أمريكا ، ومن أفريقيا إلى آسيا لم يبق على حالته التى كان عليها منذ حرب أكتوبر ، ومع التجاوز عن الأمور المتعلقة بالبترول والطاقة فإن شيئاً ما أكثر عمقاً قد انقلب رأساً على عقب فى تلك العلاقة التى كانت قائمة بين العالم الصناعى وإقطاعياته القديمة . . إلا أن هذا الانقلاب المروع قد اتخذ فيما يتعلق بإسرائيل ، شكل **الزلزال المدمر** ، ذلك أن الحرب التى عصفت بها كانت قاسية عليها فى ميادين القتال ، ثم كانت أشد من ذلك دماراً على النفوس . . وقد شهدت الأيام المؤلمة . . وهى الأيام التى تسبق عند اليهود يوم عيد الغفران مصرع حلم كبير تهاوى ورأت بعد ذلك صورة معينة لإسرائيل ، وهى تزول إلى الأبد » .

(توقيع)
جان كلود جيبوه
فى كتابه الأيام المؤلمة فى إسرائيل